مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 19، العدد 73 (شتاء 2008)، ص 118

ملف القدس

الصراع بشأن تاريخ القدس*

طريف الخالدي**

تتناول هذه المقالة بعض المشكلات المنهجية في كتابة التاريخ، كالخيار بين التاريخ والتأريخ (history or historiography)، أو الفكرة القائلة أن ليس هناك حقيقة تاريخية بل قصص تاريخية. ويحاول الكاتب في هذه المقالة أن يطبق رؤيته المنهجية على مدينة القدس فيرى أن إسرائيل تمحو وتبني من جديد على أنقاض ما محت كي يتكامل جرف الأرض مع جرف تاريخ المدينة.

تتحفنا الثقافة العالمية المعاصرة بسلسلة من المقولات التي تختصر وتختزل منظومة فكرية معقدة بكلمة أو كلمتين، وقد يكون السبب في ذلك أننا نرى في أيامنا هذه ضرورة اختزال الفكر المعقد تمهيداً لتسويقه أو ترويجه أو إيصاله إلى الفهم بسهولة. فهناك، مثلاً، في عالم الإعلام مقولة: "الواسطة هي الرسالة" (the medium is the message)، وفي فن العمارة: "الأقل هو الأكثر" (Less is more)، وفي علم الأحياء: "تطور الفرد يستعيد تطور الجنس (Ontogeny recapitulates Phylogeny) إلى ما هنالك من شعارات يسهل على المرء هضمها. ولا عجب فنحن اليوم في عصر "اللقمة الصوتية" (sound bite) التي يتحفنا بها ويشجعنا على الأخذ بناصيتها أساطين التلفاز المعاصر.

من هذه المقولات مقولة تهمني شخصياً لأسباب تتصل بمهنتي كمؤرخ وهي مقولة "لا تاريخ بل تأريخ" (not history but historiography)، أو حتى "لا ماضٍ بل روايات عن الماضي"، أو إذا شئتم "لا حقيقة تاريخية بل قصص". وهذه المقولة سلاح بتّار. فإذا أخذنا هذا السيف بقوة جاز لنا أن نبتر أي نظام فكري أو سياسي يحمله التاريخ، أو حتى أي مجتمع بشري عن تاريخه، بحيث يصبح هذا التاريخ سلسلة من القصص، ويبقى ذاك النظام أو ذاك المجتمع معلقَين في الهواء، يطفوان على سُحُب من الأساطير.

لست هنا في معرض الدفاع عن التاريخ "الموضوعي الحق"، أو في معرض الهجوم على هذه النظرية، فقد يكون لها ما يبررها. غير أن ما يهمني اليوم هو الكشف عن استخدامها في مجال التاريخ العربي الإسلامي المبكر عامة، وفي تاريخ القدس خاصة، وذلك لأهداف سياسية واضحة. يقال لنا، مثلاً، إن الروايات التاريخية عن فجر الإسلام متضاربة ومتناقضة إلى درجة لا تسمح لنا أبداً بالحديث عن تاريخ صحيح موثق وموثوق به، فالأجدر بالمؤرخ أن يلقي بها في سلة المهملات ويستعيض عنها بروايات من خارج هذا التراث، أو أن يكتفي بالإشارة إلى استحالة اللجوء إليها لكتابة التاريخ. ويقال لنا إن تلك الروايات كانت على امتداد القرن الإسلامي الأول، على أقل تقدير، روايات شفهية تتناقلها الألسن وتعمل بها يد التشويه والنسيان. هذه، وببعض التبسيط، نظريات أتى بها في البدء المستشرق الأميركي – البريطاني جون وانسبره (John Wansbrough) وتلاميذه، وتلقفها منهم فريق من المستشرقين الإسرائيليين بلهفة كبيرة واهتمام بالغ، وسرعان ما أضحى الدكتور وانسبره موضع تكريم أكاديمي لافت من جانب دولة إسرائيل.

هذا هو الإطار العام، أو على الأقل جزء منه، الذي يدور في فلكه الصراع بشأن تاريخ القدس في يومنا هذا، ولا بد من وقفة سريعة عنده قبل أن نلتفت نحو القدس. إذا كانت الروايات الإسلامية المبكرة لا تصلح أبداً للتأريخ بسبب تناقضها، ما الذي يضمن لنا أن تكون الروايات السريانية أو العبرية أو اليونانية أو اللاتينية أو ما شابه عن الإسلام المبكر، والتي اتخذها بعض هؤلاء المستشرقين بديلاً من الروايات الإسلامية، أقل تناقضاً من تلك؟ لماذا لا

نطبق المبدأ ذاته على روايات ذاك العصر كلها بلا استثناء؟ ولنا عودة إلى هذا الموضوع أدناه. أمّا فيما يختص بالطابع الشفهي للروايات الإسلامية المبكرة فرأي نجده شائعاً في كثير من الكتابات عن فجر الإسلام، وهو يساوي وبتعسف شديد بين كل من الشفهي والمحرّف، والشفهي والباطل، والشفهي والأسطوري. فليتسع صدركم لهذا المثال البسيط.

وُلدتُ أنا، العبد الفقير، في سنة 1938، أمّا والدتي فولدت في سنة 1897، وها نحن اليوم في سنة 2007. وقد سمعت منها، رحمها الله، عدة أحاديث عن تاريخ بيروت وعادات أهلها وتقاليدهم، تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر، روتها عن جدتها لأمها، وكانت ملازمة لها وتحبها حباً جماً. وها أنا اليوم في سنة 2007 أروي ما سمعت منها، أي أن المسافة بيننا وبين هذه الأحاديث هي 150 عاماً. وهناك من قد يمن الله عليه بطول العمر حتى أواسط القرن الراهن، فيقول في سنة 2050: حدثني طريف الخالدي عن أمه عن جدتها قال: "كذا وكذا وكذا". فها هي حقبة من الزمن تمتد لا قرناً واحداً فحسب، بل قرنين أو أكثر أيضاً. فإذا كنتُ صادقاً وأميناً فيما رويته، وكانت والدتي صادقة وأمينة فيما روته عن جدتها، فما المانع من الأخذ بهذه الروايات بحجة أنها تأخرت 200 عام عن منشئها؟ هل نرمي بها في سلة المهملات لمجرد أنها روايات شفهية؟ مع العلم بأن الدراسات الحديثة تدل بشكل متزايد على أن الشفهي والمدوّن تلازما منذ بداية العصر الإسلامي.

كانت هذه مقدمة طويلة بعض الشيء لموضوعي الأساسي الذي هو الصراع بشأن تاريخ القدس، وسأبدأ به في الحال.

إلى جانب الصراع السياسي والإنساني الدائر حالياً بشأن مدينة القدس يدور صراع آخر أقل بروزاً هو ذاك الذي يتمحور حول تأريخ القدس، وهو ليس بالأمر الطارئ طبعاً. فالصهيونية منذ أن وُجدت تسعى بلا كلل لاختراع فلسطين من جديد، ولاختراع تاريخ معين لها. فهي ما فتئت تقتلع وتخترع. وما أسماء المستعمرات اليهودية الجديدة التي قامت على أنقاض القرى العربية إلاّ مثال بارز لإسرائيل التي تمحو ثم تبني من جديد على أنقاض ما محت. وفي خضم هذا السيل الجارف الماحي، نلمح بوضوح رغبةً صهيونية حثيثة في إعادة كتابة التاريخ كي يتكامل جرف الأرض مع جرف تاريخها. وإذا أخذنا بمقولة "لا حقيقة تاريخية بل قصص" وتوخينا الدقة والإنصاف فقد نستنتج أن هذا الصراع يدور حول القصص، أي قصصنا نحن في مواجهة قصصهم هم. غير أن الأمر ليس على هذا النسق مطلقاً. فالصهيونية تقول لنا منذ البدء إن قصصنا وهمية وقصصها حقيقية وتاريخية. أي أن قواعد هذه اللعبة تتغير وفق ما يشاء الفريق الصهيوني. فهو كالفريق الرياضي الذي كلما اقتربت الكرة من مرماه نزع المرمى من مكانه وركض به إلى مكان أبعد.

إن الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني نظام فكري من طراز فريد، والصراع التأريخي القائم بيننا وبينه ليس مثل الصراعات التي تدور في أماكن أُخرى من عالمنا المعاصر كالصراع بشأن تاريخ الهند مثلاً بين المؤرخين الهنود والبريطانيين، أو بشأن تاريخ إفريقيا بين المؤرخين الأفارقة والأوروبيين. هذه كلها، وغيرها كثير، تدور حول أمور نظرية تتعلق بالعوامل الرئيسية التي تستأهل التوكيد في التفسيرات التاريخية: هل نؤكد هذا العامل أم ذاك؟ أمّا الصراع مع الاستشراق الصهيوني فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بمصير أرض يجري تغيير ملامحها ساعة بعد ساعة. إن هذا الاستشراق يسعى لتثبيت تاريخه هو، ولوضع علامة استفهام كبرى على تاريخنا نحن.

سأطرح فيما يلي بعض أبرز مقولات هذا الاستشراق فيما يتعلق بتاريخ القدس العربي المبكر، وكما نلمحه في الكتب والمجلات التي يستخدمها للوصول إلى غاياته تحت ستار ما يشبه البحث العلمي وخصوصاً في مجلة *Jerusalem studies in Arabic and Islam*، وهي منبر الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني الأبرز.

أولاً: يقول لنا هذا الاستشراق إن الروايات العربية الإسلامية عن تاريخ القدس في الفترة الأولى ليست متناقضة ومتضاربة فحسب، كما أسلفتُ، بل هي أيضاً منمّطة، أي أنها على شكل النموذج أو المحاكاة الأدبية (Topos) التي أخذتها المخيلة الإسلامية من الأديان الأُخرى، وخصوصاً اليهودية، أو التي اتخذت شكل النمط الذي مثيله الأقرب هو الاستعارة المبتذلة أو التجنيس وغيرهما من أنماط الكلام المبتذل، والذي انتقل إلى الأدبيات التاريخية. من هنا، فإن الوصول إلى أي حقيقة تاريخية استناداً إلى مثل هذه المصادر أمر شبه مستحيل. وليس في الإمكان أكثر من أن يسعى المؤرخ لاكتشاف النية من وراء استخدام تلك النماذج المنمطة التي تعكس في أغلب الأمر رغبات أجيال لاحقة من المؤرخين العرب عاشت بعد تلك الأحداث بمئات السنين، وحاولت خلق تاريخ يليق بالقدس لأسباب دعائية شتى.

ثانياً: إن دخول الخليفة عمر بن الخطاب إلى القدس ولقاءه البطريرك صفرونيوس هو وَهْم محض ومجرد أسطورة منمّطة الغاية منها إضفاء الاحترام والإجلال على شخص الخليفة خاصة، والقدس عامة، وكلها قصص ابتدعها خيال جيل لاحق من المؤرخين العرب ولربما في إبان الحروب الصليبية أو بعدها.

ثالثاً: إن الإشارة الواردة في القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج لا تدل على القدس تحديداً. كما أن الأحاديث عنهما تنتمي إلى عصور متأخرة أراد المسلمون فيها التشديد على أهمية القدس لأسباب سياسية، إذ لا ترد أي إشارة إلى الآيات المتعلقة بهما في الكتابات والنقوش الموجودة على جدران قبة الصخرة مثلاً، وهو أمر متوقع لو كانت القدس هي المقصودة في الآيات القرآنية.

رابعاً: إن القدس لم تتمتع بأي مكانة خاصة، لا على المستوى الديني ولا على المستوى السياسي في العصور الإسلامية المبكرة، ولم تكتسب مكانتها إلاّ بعد مضي قرون عديدة، وخصوصاً بعد الحروب الصليبية. أمّا في العصور الأولى فقد كانت مدينة هامشية دينياً وسياسياً. وعلى الرغم من أهمية قبة الصخرة والمسجد الأقصى في ميدان تاريخ العمارة، فإن هذين البناءين لا يدلان بوضوح على أي أهمية خاصة ترتبط بمكانة القدس.

هذه باختصار بعض المقولات الرئيسية التي نجدها في ثنايا الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني ذي الشكل الأكاديمي. وهي مقولات تعكس بوضوح ذهنية صهيونية ما برحت تقول لنا ومنذ عشرات السنين إن تاريخهم أكثر "قدسية" من تاريخنا. وتتسرب هذه الذهنية بين الفينة والأُخرى إلى الخطاب السياسي المباشر، كما ورد مثلاً في كلام نُسب إلى شمعون بيرس منذ زمن ليس ببعيد: "قد يكون لكم أيها العرب بعض الروابط التاريخية بالقدس لكن تاريخنا هو الأقدس." ويبدو أن جنابه لا يزال يعزف على القيثارة نفسها، فقد نسب إليه ومنذ زمن قريب جداً الجواب التالي: "هل نحن فعلاً سلبناهم أرضهم؟ لكنهم هم أيضاً سلبونا أرضنا في الماضي." وهو طبعاً لم يوضّح إلى من تعود الضمائر "نحن" و"هم" بالضبط! هل أنا طريف الخالدي الفلسطيني التائه سلبتُ شمعون بيرس أرضه في الزمن الغابر؟ كما أنه لم يوضّح لنا مقياس القداسة الذي استخدمه في مقاربته التاريخية.

وبينما تلوح مدينة القدس أمامنا كأنها مقبلة على مفاوضات تكون هي فيها بمثابة اللب والجوهر، يبدو من الضروري أن نعي ما قد يدور في ذهن المفاوض الإسرائيلي عندما تدق الساعة. إذ ربما نواجه قريباً من سيقول لنا ما معناه: "لنا القدس والقداسة والتاريخ الصحيح ولكم الأساطير." وما الهجوم الذي شنه باحث صهيوني على سيرة إدوارد سعيد الذاتية قبل بضعة أعوام سوى مثال واضح لعقلية ترمي إلى نزع التاريخ المقدسي عن شخصية مقدسية بارزة، كما نزعته من قبل عن المقدسيين بل عن الفلسطينيين جميعاً وذلك على لسان غولدا مئير.

لن أسعى لتفنيد هذه المقولات الصهيونية قولاً قولاً على الرغم من اعتقادي أنها وأمثالها من الأسس التي يُبنى عليها الخطاب الصهيوني المعاصر عن القدس، فبعضها يفند نفسه بنفسه. فعلى سبيل المثال: إمّا تلفنا الأساطير جميعاً، وتلف تواريخنا كافة، وإمّا لماذا أُفردنا نحن بالأسطورة وأُفردوا هم بالتاريخ الصحيح؟ غير أن الأمر يتعدى ذلك ليتناول حملة أوسع ترمي إلى وضع علامة استفهام كبرى بشأن صدقية المصادر العربية المبكرة برمتها. دعونا نتأمل قليلاً مغزى هذا الأمر.

فتوحات عربية شاسعة الأرجاء تقضي، وفي زمن قصير نسبياً، على إمبراطوريتين عظميين وذلك من خلال عمليات عسكرية تفترض درجة عالية من المهارة اللوجستية، ثم تبني لنفسها نظاماً إدارياً وحضارة مدنية وتتولى أموراً حكومية ومالية وقانونية بالغة التعقيد، إلى ما هنالك من بنيان حضاري إمبراطوري. وها هو الآن يأتي من يقول لنا إن هذه الحضارة الإمبراطورية حين جاءت لتضع لنفسها تاريخاً كانت كالطفل الساذج الذي لا يفرق بين الحقيقة والخيال. ثم يقال لنا أيضاً إنه، وبعد ذلك بمئات السنين، أتت طبقة أُخرى من المؤرخين فابتدعت تاريخاً جديداً برمته، وكأنما هي مؤامرة كبرى تهدف إلى طمس ما لا يلائمها وإبراز ما يخدم أغراضها الدعائية، كمكانة القدس مثلاً. إن الذي يضع علامة استفهام على المصادر المبكرة هو كالذي يقول لنا إن الحضارة العربية الإسلامية كانت متقدمة في الميادين الإدارية والحكومية والتشريعية وغيرها كافة، لكنها كانت طفولية وساذجة وأسطورية في كتابة التاريخ، أو كمثل من يقول إن ترميم المنزل التاريخي مستحيل لمجرد أنه متشقق.

ومن ثم علينا أن نصدق أن جيلاً كاملاً من المؤرخين العرب في عصور لاحقة جلس حول طاولة الكتابة ودرس الأدبيات اليهودية بدقة وتمعن، ثم تواطأ على اختلاق قصة زيارة الخليفة عمر إلى بيت المقدس كي تأتي متلائمة ومتناغمة مع النبوءات اليهودية – ولا يقال لنا لماذا فعل ذلك – ثم تآمر فيما بعد على طمس الروايات الأُخرى جميعها، وكل هذا ليعظم مكانة القدس ويخترع لها أهمية لم تكن لها من قبل. ويراد لنا أن نصدق أن هذه المؤامرة

التأريخية تمت في زمن بلغ فيه جهابذة التاريخ والحديث درجة عالية جداً من التمحيص والتدقيق في الروايات. هذا كله على الرغم من أن الدراسات الحديثة أرجعت نشوء وتطور كتب "فضائل القدس" – وهو ضرب أدبي تاريخي شائع – إلى حقبة تسبق بقرون الحروب الصليبية، أي أن مكانة القدس لم تكن بحاجة إلى تلك الحروب لإبرازها. (يُراجع البحث القيّم للدكتور سليمان مراد في مجلة "الأبحاث"، العدد 44، سنة 1996، في مجال تقويضه نظرية الإسرائيلي عمانويل سيفان/Emmanuel Sivan وغيره من المستشرقين).

أمّا فيما يختص باستخدام النماذج والأنماط، أي مسألة الـ Topos في الكتابة التاريخية، والتي طورها المستشرق الألماني ألبرخت نوت (Albrecht Noth) في دراسته المصادر العربية المبكرة، فالواضح والجلي لكل من تصدى لهذا الموضوع أن النمط أو النموذج لا يمكن أن يكون نمطاً ناجحاً بالمعنى الأدبي إلاّ إذا كان قريباً من الحقيقة وملازماً لها، أي إلاّ إذا تضمن في داخله نواة من الحقيقة التاريخية. فالمؤرخون قديماً وحديثاً يلجأون إلى استخدام الأنماط والنماذج في الروايات التاريخية لأنها تحاكي الواقع وتشبه الحقيقة وتكسب الرواية طابعاً أدبياً، وليس لإخفاء هذه الحقيقة أو طمسها أو أسطرتها (أي جعلها كالأسطورة)، تماماً كما هي الحال في التشبيهات والاستعارات في الكتابة الأدبية. من هنا فإن وظيفة المؤرخ المعاصر تكمن في اكتشاف اللب التاريخي أو، إذا شئتم، صدى الحقيقة داخل ذاك النمط أو النموذج، لا في رمي الرواية بأسرها في سلة المهملات.

سأستطرد بعض الشيء في هذا الموضوع لأن كلمة Topos أصبحت اليوم مرادفة للباطل أو للخيال، وهي شائعة في بعض الأوساط الاستشراقية. ولعل المثال الآتي قد يفيد في إيضاح ما أعنيه. يأخذ بعض المستشرقين على تاريخ الطبري مثلاً، أنه وفي مجال سرده للفتوحات، يأتي إلى ذكر الجيش الرومي في بعض المعارك ويقول إنه كان مربَّطاً بالسلاسل، ثم يأتي لاحقاً إلى ذكر الجيش الفارسي ويقول إنه هو الآخر كان مربَّطاً بالسلاسل. لا بد إذاً من اعتبار الأمر بمثابة Topos، أي وصف نمطي لا قيمة تاريخية له. لكن هل الأمر على هذه الدرجة من البساطة؟ ألا يجدر بنا أن نسأل ما المغزى من استعمال هذا النمط؟ أليس من الممكن أن نقول إن هذا النمط قد يشير إلى مشاعر واسعة الانتشار في صفوف الفاتحين، أي أن أعداءهم كانوا مرغمين على القتال، أو أنهم كانوا يحاربون ولا حول لهم ولا قوة؟ هل نرمي الـ Topos في سلة المهملات، أم هل نسعى للكشف عمّا قد يخبئه لنا من مشاعر وذهنيات ذات قيمة تاريخية بالغة؟ ولا حاجة إلى الإضافة أن استخدام الـ Topos أداة للتحليل أمر شائع جداً في الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني. غير أن الأدهى من هذا وذاك أن الاستشراق الصهيوني، وبعد أن وضع علامة استفهام كبرى على ما تتضمنه المصادر العربية المبكرة كلها عن القدس، يعود فينتقي من تلك المصادر ما يناسب نواياه وأغراضه. ففي رواية الفتح العمري للقدس مثلاً، يقول المستشرق الألماني هريبرت بُسّه (Heribert Busse)، (وهو مولع بنشر أبحاثه في المجلة الإسرائيلية المذكورة أعلاه)، إن الخليفة عمر ليس هو الذي فتح المدينة، وإنما الفاتح الحقيقي هو على الأرجح عمرو بن العاص. لن أدخل هنا في تفصيلات الحجج الواهية التي استخدمها للوصول إلى هذا الاستنتاج، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو الآتي: إذا كانت المصادر كلها مشبوهة، فما معنى الانتقاء والتفاضل بين الروايات؟ وإذا كانت المصادر كلها مشبوهة، فما معنى أن يُكتب أي تاريخ من أي نوع كان استناداً إليها؟ ومن سخرية الأقدار بالنسبة إلى هذا النوع من الاستشراق أن آخر ما توصل إليه البحث العلمي الجاد بشأن المصادر غير العربية لتاريخ الإسلام المبكر، أي المصادر اليونانية والسريانية والعبرية والقبطية والأرمنية والفارسية إلى ما هنالك، هو أنها تتطابق في أغلب الأمر مع ما نجده في المصادر العربية وتؤكد، فيما تؤكد، الفتح العمري للقدس (يُراجع كتاب روبرت هويلاند/Robert Hoyland المهم جداً بعنوان "الإسلام كما رآه الآخرون"/*Seeing Islam as Others Saw It*).

وفيما يختص بقبة الصخرة والمسجد الأقصى، يقال إن غياب أي إشارة إلى الإسراء والمعراج في الكتابات والنقوش في هذين الحرمين يدل، كما أسلفنا، على أن ربط الإسراء والمعراج بالقدس أمر تم في عصور لاحقة، إذ لو كان هذا الرابط موجوداً في زمن البناء لما غاب عن ذهن الباني أن يذكر الآيات المتعلقة بهما في تلك النقوش. لا أدري كيف نفترض ما جال وما لم يجل في ذهن الباني، غير أن هذه المقولة مثال واضح للسفسطة التي تفترض أن غياب دليل ما دليلٌ على انعدامه. ولا حاجة تدعو إلى الوقوف عند هذه المغالطة التي يظهر منها بوضوح غرضها الدعائي.

هذه بعض ملامح هجمة يشنها الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني الذي لا همَّ له سوى إلقاء الشك على مركزية القدس في التاريخ العربي. ونحن، وإن كنا اليوم نشهد على أرض الواقع تنازلات فلسطينية متتالية على صُعد

التفاوض السياسي والقانون الدولي والأرض، مع ما يواكب ذلك من إعلام رسمي غبي وخجول ومتردد، نشهد في المقابل بعض التراجع الصهيوني الملحوظ على صعيد تاريخ فلسطين الحديث. فقد كسبنا أو نكاد، منذ بضع سنين، معركة تأريخية مهمة هي معركة تاريخ نشوء دولة إسرائيل وطرد الفلسطينيين منها. فقد كانت الحجة الإسرائيلية ولسنوات مديدة أن الفلسطينيين هربوا من أرضهم تبعاً لأوامر تلقوها من الزعماء العرب. أمّا الآن فإن فريقاً من المؤرخين الإسرائيليين اسمهم "المؤرخون الجدد" جاء ليغير هذه الأسطورة السائدة، وليبرهن أن طرد الفلسطينيين كان جزءاً من سياسة إسرائيلية متعمدة وموثقة بالوثائق الإسرائيلية الرسمية ذاتها. وكان بعض المؤرخين الفلسطينيين وصل إلى هذه النتيجة بالذات قبل المؤرخين الجدد بعقود طويلة. لقد أجبَرْنا الإسرائيليين على إعادة كتابة تلك الفترة من التاريخ الفلسطيني الحديث وإن لم نرغمهم بعد على مواجهة النتائج الأخلاقية والقانونية الناجمة عن مثل هذا الاعتراف، ناهيك عن مضاعفات هذا الأمر على الصعيد التفاوضي. إذاً، هل حالنا اليوم كمثل الذي انتزع القشر من عدوه وترك له اللب؟ هل ربحنا نحن معركة من معارك التأريخ وربح هو معركة الأرض؟ هل حالنا كحال قصة من قصص كليلة ودمنة؟ لا أدري ما الجواب الشافي عن هذا السؤال، لكن ثمة حقيقة تاريخية يجب ألاّ نغفل عنها وهي أن الصراع بشأن القدس يدور على صُعد شتى. وبينما يقترب هذا الصراع من إحدى محطاته العديدة عبر الزمن، لا بد من التصدي لهذه العقلية الصهيونية العجيبة التي تسمح لنفسها ببلع الأرض، والتي تجد أن بلع الأرض هذا أسهل على الهضم إذا كان ممكناً إغراق الأرض المنوي بلعها في مستنقع من الأساطير.

ولديّ في الختام أمنية. لقد آن الأوان لعقد مؤتمر عالمي علمي عن الاستشراق الإسرائيلي – الصهيوني ومن أوجهه كافة: التأريخي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي وغيرها. فقد تكونت إلى اليوم مجموعة من الدراسات الإسرائيلية والصهيونية عن عالمنا العربي، ولم نعمد بعد إلى دراستها وتقويمها بشكل معمق أو حتى بصورة سطحية. ما هي الأسس النظرية التي تستند إليها؟ ما هي القواسم المشتركة التي تجمع بينها؟ كيف ترانا هذه الدولة التي تعبث بمصيرنا وتاريخنا؟ وكيف نتفاوض مع من لا يزال ينظر إلى تاريخنا كأنه نسيج من الأساطير؟ ■

(*) في الأصل محاضرة أعيدت كتابتها وأضيف إليها العديد من الإيضاحات من دون تغيير في الأسلوب، أو تبديل في الطريقة وما قد يرد فيها من تكرار وعفوية.

(**) أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الأميركية في بيروت.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx